وقالَ عنه بَحيرا حِينَ أبْصَرَهُ بأرْض بُصْرَى مَقالاً غَيْرَ مُتَّهَم
إذْ ظَلَّلَتْهُ الغَمَامُ الغُرُّ وانْهَصَرَتْ عَطْفاً عليه فُروعُ الضَّالِ والسَّلَم[1]

ويتابع البارودي حياة الرّسول متابَعةً تاريخيّة دقيقة ؛ فيتحدّث عن خبر الإسراء والمِعْراج ثم الهجرة إلى المدينة ، ولا يفوته ذِكرُ معجزةِ الغار والحَمام المُعَشِّش على بابه ، ثم بلوغِه يثربَ في أمان وبنائه للمسجد الذي أصبح نَواةً للجماعة الإسلاميّة الجديدة ؛ بعد المؤاخاة بين الأنصار والمهاجِرين . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن غزَوات الرّسول وسَراياهُ ، فيتَتَبَّعها واحدةً واحدة ، مُلتَزِماً بترتيبها التاريخيّ ، وهو في كلّ ذلك لا يختلف عن المادحين السّابقين ، غيرَ أن وصْفَه لمشاهد القتال – وهو موضوعٌ محبَّب لدى البارودي الذي كان رجُلَ سيفٍ وقلَم في الوقت نفسه – يتميّز بالتّوَهُّج والقوّة :

فكانَ يَوْمًا عَتيدَ البَأس نالَ بهِ كِلا الفَرِيقَيْن جُهْدًا واريَ الْحَدَم
قامَ النّبيُّ بهِ في مَأزِقٍ حَرِج تَرْعَى المَناصِلُ فيهِ مَنْبِتَ الجُمَم
فلم يَزَلْ صابِراً في الحَرب يَفْثَؤُها بالبِيض حَتّى اكْتَسَتْ ثَوْبًا من العَنَم[2]

ويتّضح طابَع السّرْد التّاريخيّ في حديثه عن هذه الغَزَوات ، حينما يختم هذا الحديث بقوله :

فَهَذِهِ الغَزَوَاتُ الغُرُّ شامِلَةً جَمْعَ البُعُوثِ كَدُرٍّ لاحَ في نَظَم
نَظَمْتُها راجِيًا نَيْلَ الشَّفَاعَةِ من خَيْرِ البَرايا ومَوْلَى العُرْبِ والعَجَم

ويتحدّث بعد ذلك عن فتح مكّةَ وانْثيال الوفود على الرّسول ﷺ من سائر أنحاء الجزيرة ، وكان بذلك انتصارُ الإسلام الأخير وتَمام الرّسالة . ويختم

---

(١) انهَصَرت : عطفت ومالَتْ ، والضّال والسَّلَمُ : نوعان من الشجر .

(٢) الحَدَم : التهاب النّار ، و المناصِلُ : جمع مُنْصُل وهو السّيف ، والجُمَمُ : جمع جُمّة وهي مُجْتَمع الشعر، ومنبِتُ الجُمَم يعني الرّقاب ، والبيضُ : السيوف ، والعَنَم : صِبْغٌ أحمر يشبّه به الدّم .